وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

( )

التعدد الديني : التعايش في الدنيا .. وتفويض المآل إلى الله تعالى

العقائد اختيار محض :

قد يظن بعض الناس أنه ليس هناك دين غير الإسلام، لا، بل هناك أديان أخرى، والواقع يؤكد هذا المعنى، فأهل الكتاب مثلا لهم دينهم، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾ (29)، هذه الأديان الأخرى وسعها الإسلام، وعاشت في ظلاله قروناً والمسلمون آنذاك بفتوحاتهم وتوسعاتهم كانوا في مرحلة قوة وكانوا هم قادة العالم ولهم القوة الأولى في الدنيا، كانوا يستطيعون أن يفرضوا على الناس دينهم فرضا ويكرهونهم على الإسلام كرها، لم يحدث ذلك أبداً (30)، وإن حدث فالفعل مردود على فاعله، لأن الإسلام لا يقبل إيماناً فيه شبهة إكراه، لابد للإيمان أن يكون اختياراً محضاً، ولذلك لم يجبر غير المسلمين في وقت من الأوقات على دخول هذا الدين، وهذا ما قرره بعض المستشرقين الغربيين أنفسهم مثل توماس أرنولد (31) بقوله: "لم يحدث في تاريخ المسلمين أن جماعة أجبرت على أن تدخل في الإسلام إكراه"، تركوا هؤلاء وعاشوا في بلاد المسلمين أهل ذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لهم كنائسهم ولهم بيعهم ولهم نواقيسهم ولهم أزياؤهم...، ما أجبر أحد على أن يغير زيه ليكون مثل المسلمين، بل بالعكس، ما دام الإسلام قد تركه لدينه وضمن له حرية الاعتقاد فمن حقه أن يعيش بدينه وأن يقيم شعائره وأن يؤدي واجباته وأن يرعى حقوقه، وهذا من ثمرات إقرار التعدد واحترام مبدأ التسامح .

إن التعددية الدينية تحتاج إلى التسامح، وقد يتساءل البعض: كيف يتسامح الإنسان وهو يعتقد أن دينه هو الحق وأن دين غيره هو الباطل؟ وإذا كان يعتقد هذا كيف يتسامح مع غيره ؟ لعل الإجابة تكمن في أن هذا الأمر يعد من روائع ما جاء به الدين الحنيف، أنه برغم اعتزاز معتنقه بإسلامه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(32) ، رغم اعتزازه بالإسلام ومباهاته بالإسلام ومغالاته بالاعتزاز بهذا الدين فإنه قد غرس فيه من العقائد والمفاهيم والأفكار ما يجعله يتعايش بتسامح منقطع النظير مع المخالفين له .

من هذه المفاهيم والأفكار الأساسية أنه بين أن اختلاف الناس واقع بمشيئة وإرادة الله الخالق، الله هو الذي أراد الناس كذلك ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (33)، هكذا خلق الله الناس وأن هذا واقع بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، وما دام هذا بمشيئة الله التي لا تنفصل عن حكمته - من أسماء الله وصفاته المذكورة في القرآن: اسم الحكيم - فمن العبث أن يقاوم الإنسان مشيئة الله، لأن مشيئة خالقه وبارئه هي النافذة وهي الغالبة وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (34). الأمر الثاني، أن الإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، الإنسان من حيث آدميته مكرم في الدين الإسلامي، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (35)، الله أوجد الإنسان وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وجعله في الأرض خليفة، فبذلك يصير الإنسان هو محور هذا الوجود، كرمه الله بغض النظر عن لون بشرته أو شعره أو عينيه، بل بغض النظر عن دينه أي دين هو معتنقه. جاء في كتابي البخاري ومسلم (36) أن أناسا مروا بجنازة إنسان ميت فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم واقفا، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، هل تقوم احتراماً لها؟ فقال النبي: (أليست نفسا؟). أليست نفسا بشرية؟ فما أروع الموقف وما أروع التعليم.. النفس البشرية تكرّم لأنها نفس بقطع النظر عن دينها. وهكذا، النفس الإنسانية مكرمة معصومة مصونة، ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (37).. هذا هو الأمر الثاني الذي يعالج به الإسلام التعصب ويسعى لمحوه من نفسية الفرد ليغرس فيها التسامح والأفق الواسع .

الأمر الثالث، هو أن الإسلام يأمر بالعدل - من أسماء الله وصفاته المذكورة في القرآن: اسم العدل - مع الناس جميعاً، لا وبل مع كل الكائنات وفي كل حالة وهيئة: مع المحب أو غير المحب، مع القريب أو البعيد، مع الصديق أو العدو، مع المسالم أو المحارب، مع المسلم أو غير المسلم، فالعدل للناس جميعاً بدون استثناء، ولذلك تجد القرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (38)، هذا عدل مع المحب أو القريب، ويقول في آية أخرى في شأن البغيض أو البعيد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا﴾ (39)، –لا يحملنكم شنآنهم أي شدة بغضهم لكم أو شدة بغضكم لهم، لا يحملنكم هذا على ألا تعدلوا– ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (40)، لأن العدل مع الجميع وللجميع،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبهذا يغرس الإسلام روح التسامح مع المخالفين، بلا حيف ولا تضييق، يعاملهم بالعدل ويعاملهم بالرحمة ويعاملهم بالقسطاس المستقيم، بما أن الأرض تسع الجميع .

التسامح مع غير المسلم :

خلق الله الناس على أديان مختلفة ويجب أن يسع أهل الأديان بعضهم بعضاً. لا يجبر أناس على أن يتركوا دينهم ليعتنقوا ديناً آخر، لم يأت الإسلام بهذا، لأنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (25)، ولذلك يحث الإسلام المسلم أن يسع المخالفين، لا أن يقهرهم على أن يتبعوا دينا واحدا، سواء كان ذلك الدين دينه هو أو دين غيره. كما لا يسمح الإسلام لأحد أن يقهر معتنقيه على ترك دينهم أو أن يمنعهم من طاعة ربهم. هذه التعددية الدينية هي التي قررها الإسلام منذ العهد المكي وفي العهد المدني أيضا .

نجد أن هناك سورة في القرآن جمعت بين أمرين قد يظنهما بعض الناس متناقضين، الاعتزاز بالدين إلى أقصى حد والتسامح مع المخالف إلى أقصى حد، هذه السورة هي سورة الكافرون. السورة الوحيدة التي خاطب الله فيها غير المسلمين في حياتهم الدنيا بعنوان الكافرين، فمن عادة القرآن أن يخاطب غير المسلم دائماً بـ (يا أيها الناس، يا بني آدم، يا عبادي، يا أهل الكتاب...) لكن ورد في هذه السورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (26 .(ويعود سبب نزولها لقصة مساومة المشركين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. كانوا يساومون النبي ويفاوضونه على أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وهذه المساومات أراد القرآن أن يقطعها بقرار حاسم واضح جلي، ولذلك قال ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ، هذا التكرار والتأكيد يتبعه في نهاية السورة هذا التسامح العجيب ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغةَ نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدَّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاريّ للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حقّ" هو الله سبحانه وتعالى، و"خلْق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي تكون "الواحدية والأحدية" فقط للحق، لله سبحانه وتعالى واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًّا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم -لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة- تعايشَ كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خُلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محلَّ التعايش والتعارف، الأمرُ الذي يصادم سنة الله سبحانه وتعالى في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله.

وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:13). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والسماحة هي السبيل لتعايش الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.
وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنةً من سنن الابتلاء والاختبار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفي ميادين الخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:48). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.
وانطلاقًا من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًّا، كان "العدل" الذي هو معيارُ النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾(النساء:135)، بل ويوجب الله سبحانه وتعالى علينا العدل حتى مع مَن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:8).
كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلّة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامةً لهذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميّز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:113).
فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلَم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضًا في الحديث عن النصارى عندما ميّز بين مَن هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:82-83).
والمنطلق الإسلامي لهذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فالله سبحانه وتعالى رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:2) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:70). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:13)، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة أو أية صفة من الصفات اللصيقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:30).
وتأسيسًا على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدّقا لها، ومهَيمنًا عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية وكانت النصرانية تنكر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾(البقرة:91)، ومؤكّدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هُدى ونور ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:2-4)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:44)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:46).
ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف كقانون تكويني (أزلي أبدي)؛ الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿آمَنَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
FOR QURANIC THOUGHT
الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:285).
ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.
وانطلاقًا من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرسل والأنبياء، فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشرائعهم (أمهاتهم) شتى: "الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد"(متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود فقال: "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم"(متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة"(متفق عليه).
ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لغير المسلمين.
ففي دستور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخَر الديني (اليهود) جزءً من الذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم".(1)
وعندما جاء وفد نصارى "نجران" سنة 10 هـ / 631 م إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلّوا فيه صلاة عيد الفصح، مولّين وجوههم إلى المشرق، ثم تركهم وما يدينون.(2) وعقد لهم عهدًا عامًّا دائمًا لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحرارًا في "الدين"؛ فرأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيدَ بن أبي سفيان "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذَرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له"(رواه مالك في الموطأ).
ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القُدس (إيليا) عند فتحها سنة 15 هـ / 635م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يُخرجوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين".(3)
بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية (اليهود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها مجوس عبدة للنار- سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجلس الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب".(4)
والإسلام لم يفرض على منكريه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حِسابهم على الله يوم الدين.
ولذلك قال الإسلام حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:4-6).
ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدًّا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. فـ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:256)؛ لأن الإكراه يثمر نفاقا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.
ولم يُقم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رأس الدولة حدًّا على مرتدّ إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالنفر الذين اغتصبوا إبل الصدقة (مال الدولة) وقتَلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل (عمّال الدولة) ومثّلوا بجثثهم،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:33-34).
ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالِفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائمًا وأبدًا في سياق الحديث عن صدّ عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾(الحج:39-40). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراء"، و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:8-9).

وفي التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا الشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.
وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديمة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.
وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يَدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالماءة من السكان.(5) فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحرَّرة من الروم المتربصين الذين ظلوا يجيّشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرّية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.
ولقد شهد بهذه الحقيقة -حقيقةِ سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام- التاريخُ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.
فهذا الفتح الإسلامي هو الذي أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول -دون مبالغة- إنّ بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.
فعمرو بن العاص رضي الله عنه هو الذي أمّن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعاده إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذي حرر كنائس نصارى مصر وأَدْيرتهم من الاغتصاب الروماني، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى في تاريخ النصرانية المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأديرة حرر عمرو بن العاص رضي الله عنه -لأنه مسلم- ضمائر الشعوب التي أدخلتها الفتوحات في دولة الإسلام، لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشعوب بعد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!..

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضا لهذه السماحة الإسلامية.
ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص رضي الله عنه مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" -وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكّامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافَظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".(6)

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع. ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص رضي الله عنه البطرك القبطي "بنيامين"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

ولقد عبّر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدتُ في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتَين كنتُ أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون".(7)

تلك شهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإنقاذ" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص رضي الله عنه، حتى "ليُروى أنه خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا (بالأمان) هو عندهم".(8)

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبّوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة 25 هـ / 646م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، هبّوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام.

الهوامش

(1) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د.محمد حميد الله الحيدرآبادي، القاهرة 1956م، ص 17-21.

(2) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف بن صالح الشامي، 642/6.

(3) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص 345-346.

(4) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص 345-346.

(5) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج، يوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة 1994م، ص 25.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(6) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة 2000م، ص 201-202.
(7) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص 220.
(8) تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص 194.

الإسلام والنظرة الى الآخر

بسم الله الرحمن الرحيم
"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون". (سورة الممتحنة (

خرجت علينا في الآونة الأخيرة أصوات مصدرها دعاة العولمة/الأمركة، أو من هو بحكم التابع لهم أو الحليف تنال من المسلمين والعرب ملاحقة لهم بتهمة الارهاب، ولذلك بات من الأهمية بمكان أن يعمل أهل الرأي والدعاة لتظهير الصورة بالشكل السليم وفيها ان الإسلام دين السماحة ومنهجه وسطي وغائيته السعادة البشرية جمعاء انطلاقاً من الآية الكريمة التي جاء فيها الخطاب الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم:" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وفي المعنى نفسه كان الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه بلسان رسول الله:"إنما أنا رحمة مهداة ."

-1الإسلام وقبول الآخر الإنسان :

إن الإسلام الرسالة السماوية الخاتمة استهدف- كما هي الحال في الرسالات السماوية كافة- تحقيق سعادة الانسان، ورفع شرفه وكرامته، ونشر العدل في مواجهة الظلم، والفضيلة في مواجهة الرذيلة، والهدى في مواجهة الضلال .

وقد جاء البلاغ الإلهي بأن الانسان خليفة الله تعالى في الأرض، ومزود بالعلم وبالعقل، وهذه الخاصية لم تكن سوى له، يقول الله تعالى:" وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة"؛ أي الإنسان .

وفي موضوع الخلق كان للإنسان من الخصائص ما فاق فيه المخلوقات كلها بلا استثناء، قال تعالى: " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ."

الإنسان في الإسلام، وفي النص القرآني مكرم لآدميته قبل كل اعتبار، وبالتالي فإن الملتزم بالإسلام مطالب أن يلتزم النص القرآني وما يوجه اليه. وفي الآية الكريمة:" ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ."

تأسيساً على ما تقدم نقول: إن الإسلام يطالب المسلمين ويوجههم الى قبول الآخر أياً كان انتماؤه احتراماً لآدميته. وهذا الأمر لم يبق في الإطار النظري بل رافق الإسلام منذ العهد الأول له. وكان التطبيق في المجتمع الأول في المدينة المنورة بعد الهجرة حيث قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم التعدد في الإنتماء العقدي والديني والقبلي أو العائلي والإجتماعي في هذا المجتمع، وكان لذلك ميثاق يصح ان نقول عنه أنه ميثاق وطني، أو دستور يؤسس لمجتمع تصان فيه حقوق المواطنية للجميع .

وهذا بلا نقاش منطوق الآية الكريمة:" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ويخرجوكم من دياركم ان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ."

-2الإسلام وقبول الآخر المسلم :

إن الموقف الفئوي والمتعصب الذي يحكم سلوك بعض المجموعات والجماعات او الفرق والاتجاهات، والذي يقوم على ادعاء ان كل فريق هو الفرقة الناجية موقف كان ولا يزال يولد الشقاق، ويؤسس لفتن بدأت مع الخوارج في اواخر عهد الخلفاء الراشدين .

ان الفرقة ورفض فئة لأخرى جرّ في التاريخ الإسلامي مشكلات كثيرة تجندت لها اقلام، وصرفت عليها جهود ولا تزال حبذا لو صرفت في امور اكثر جدوى للمسلم وللانسان عموماً، وقد وصل الامر في مرات كثيرة على مستوى الأفراد او المجموعات وأحياناً الحكم الى حد الاقتتال وسفك الدماء، ولا أحد يستطيع تفسير مثل هذه الظاهرة وقول الله تعالى:"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" فأين تنفيذ امر الله تعالى:"رحماء بينهم" عند حصول الاقتتال؟

ثم أين الالتزام بما أتانا به رسول الله في الحكم نفسه في خطبة حجة الوداع، وقد قال صلى الله عليه وسلم:" أيها الناس: إن دماءكم واموالكم وأعراضكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ."

كم نحن بحاجة الآن كي يذكر كل انسان نفسه أولاً وسواه ثانياً بهذا الخطاب النبوي وأن يختم: اللهم فاشهد. فبذلك يكون قد تبرّأ كل مؤمن مبلَّغ وملتزم أمر الله تعالى وسنة نبيه المصطفى من شياطين الأنس دعاة الفتن، وأهل الغلظة الذين يفرقون بين الناس دون احساس بالمسؤولية تجاه الله تعالى واتجاه عباد الله من المسلمين او سواهم، لأن من يرفض قبول الآخر المسلم يصعب ان يقبل غير المسلم، وبذلك يكون قد جانب الإسلام وأهله، ويكون ممن ابتعدت بهم الخطى عن جادة الصواب والله تعالى أعلم .

يقول الله تعالى:" واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ."

ولعل المشكلة في أولئك الذين يخلطون بين الفقه والشرع، ويعملون لإلزام الناس بفقههم، وهذا مطلب غير محق زد على ان بعض الآراء والمواقف تبنى عند الفئويين وغير العارفين بحقيقة الأمور على الجهل او على الهوى والمصلحة فتثمر هذه الحالة اختلافات في الفتيا، وكان الأصح ضبط الفتوى بالنص القرآني والسنة النبوية كي تجنب الجميع اتباع الهوى والرأي الخاص .

وقد صور هذه الحالة الإمام علي كرم الله وجهه أجمل تصوير عندما قال:" ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد .

أفأمرهم الله- سبحانه- بالإختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه؟ .

أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على اتمامه؟ ام كانوا شركاء له، فلهم ان يقولوا، وعليه ان يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه وسلم عن تبليغه وادائه؟ ."

لا بد من إعادة النظر في مسألة اصدار الفتاوى حلاً لما نرى من شغب واختلافات في ساحتنا، وكي تأتي الفتوى سليمة، والحل أن نوقف فتيا الأفراد، ونذهب باتجاه المؤسسات والمجامع الفقهية القائمة لأن تشابك الامور لا يحتمل ان تبقى الفتيا في إطار فقه الأفراد هذا مع اعتماد الاصل الذي يقضي بعدم التغافل عن قاعدة دور ان الحكم مع المصلحة، وان يتم التركيز من جهة أخرى على فقه الواقع .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والمسألة الأخرى هي التأكيد على موقع العرب والعربية في المرجعية، فالقرآن عربي، والسنة بالعربية والتراث الفقهي بالعربية، وتدوين التاريخ والمنجزات الحضارية كان بالعربية، والحالات التطبيقية للتشريع الإسلامي منذ مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة والصحيفة كانت في المجتمع العربي؛ لكل هذا يكون من الضروري أن تكون مرجعية المسلمين عربية؛ أي ان تكون المجامع الفقهية ومصادر الفتوى العربية، وان يتعرب لغة وثقافة العالم المسلم غير العربي كي يكون له سهمه في مجامع البحوث والفقه .

ونترك جمال الدين الأفغاني يبين هذا الأمر حيث يقول: "فالأتراك أهملوا امراً عظيماً، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح، رحمة الله عليه، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم، وهي قبول اللسان العربي، لسان الدولة، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم، ليفقهوا أحكامه، ويمشوا على سنن الإرتقاء، بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله .

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه، وذلك ما تمّ ولا يتمّ الا باللسان، وهو اهم الأركان ."

تأسيساً على ما تقدم يكون الأمر المطلوب هو وقف الاستيراد للحلول الجاهزة، والانبهار بشعارات براقة، ومواقف انفعالية أحلتها ظروف ما على أمير جماعة، أو صاحب مشروع في بلده لأنه كما قال المثل العربي: ما هكذا تورد الابل يا سعد .

3-الإسلام وقبول الآخر المسيحي :

إن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين أساسها المودة، والمودة كما هو معلوم درجة عالية من العلاقات السامية النبيلة بين طرفين وعمادها الحب. والمسيحيون أقرب الناس مودة للمسلمين، وفي هذا جاء النص القرآني متجاوزاً مجرد القبول للآخر المسيحي أو النظرة الإيجابية له إلى هذه الدرجة المتميزة من العلاقات. قال الله تعالى:
"ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ."

أما ترجمة هذه المودة فقد بدأت مع السنوات الأولى للإسلام نصرة وتآزراً في مواجهة الشرك وأهله. فعندما اشتد الأذى على المسلمين في مكة المكرمة من قبل المشركين كان قرار رسول الله إلى عدد من الصحابة بأن يرحلوا إلى أرض الحبشة فهي كما عرفها عليه الصلاة والسلام أرض صدق وفيها ملك لا يُظلم عنده أحد: وبالمقابل بادلهم النجاشي المسيحي موقف المودة نفسه عندما أعرض عن وفد قريش وما حمل معه من هدايا، وتمسك بالعهد والميثاق مع المهاجرين المسلمين إلى دياره .

تضاف إلى هذه المحطة المهمة التي تؤسس لعلاقات تترجم المودة التي أشارت إليها الآية الكريمة الطريقة التي تعامل بها رسول الله مع وفد مسيحيي نجران الذي جاءه ومعه أسقفان، واستقبلهم في مسجده بالمدينة المنورة بعد العصر، ولما حان وقت صلاتهم قال لصحابته: دعوهم يصلون. فقاموا وصلوا في مسجده وبحضوره صلى الله عليه وسلم متجهين إلى البيت المقدس. إن هذه الواقعة تشكل قمة الذروة في نظام قبول الآخر واحترام معتقده وشعائره، ولا أظن التاريخ يحفل بحادثة مماثلة .

وإذا تجاوزنا العهود التي أعطيت للمسيحيين، ومواثيق الأمان، وقد حوتها مجلدات إلى واقعة فتح بيت المقدس زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكانت لنا محطة مشرقة في العلاقات الإسلامية-المسيحية. عند حصار القدس طلب بطريركها صفرينوس أن يحضر أمير المؤمنين عمر ليسلم له مفاتيح المدينة فاستجاب عمر رضي الله عنه تأكيداً لقاعدة "أقربهم مودة"؛ ودخل القدس واستلم مفاتيحها، ولما حانت الصلاة، وطلب منه البطريرك صفرينوس لم يفعل الخليفة ذلك خوف أن يستغل ذلك أناس بعده فيطالبوا بموقع الكنيسة تحت حجة أن الخليفة صلى فيها، وبعدها كان عقد الأمان المشهور باسم العهدة العمرية، وقد ورد فيها :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

"هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر أهل إيليا (القدس) من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم ومقيمها وبرّيّها وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من يهود ."

هذه العهدة العمرية ليست الوحيدة وإنما تماثلها عقود أمان كثيرة ومواثيق أكدت وتؤكد عمق الروابط الإسلامية-المسيحية. ومن ذلك أن كنيسة القسطنطينية في القرن السابع الميلادي والثامن الميلادي عندما ضاقت ذرعاً بالآخر المسيحي الماروني وهي مسيحية، ولاحقت أتباع المارونية مع القديس يوحنا مارون، فقد وجد الموارنة أمنهم وأمانهم في مناطق الشمال اللبناني وفي ظل الدولة العربية، وفي ظل الحاكم المسلم الأموي وبعده العباسي .

وعندما تمرد بندار على العباسيين، وقام بثورة المنيطرة من أعمال جبل لبنان، وكان قرار الوالي العباسي يومها صالح بن العلي بن العباس أن ينال من موارنة جبل لبنان بسبب ما فعله بندار وأتباعه تصدى له الفقيه المسلم عبد الرحمن الأوزاعي رحمه الله تعالى، وأرسل له رسالته الرادعة التي تدل على عمق المودة لا مجرد القبول بين المسلمين والمسيحيين. ومما جاء في الرسالة :

"وقد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم؟". واستشهد الأوزاعي بقوله تعالى: "ولا تزر وازرة وزر أخرى ."

هكذا تأصلت العلاقات، ولهذا قام المسيحيون العرب والشرقيون عموماً مع مواطنيهم المسلمين يقاومون هجمة الفرنجة اللاتين واجتياحهم المنطقة، والمثال البارز قائد ميمنة جيش صلاح الدين الأيوبي عيسى العوّام .

واستمر الاحترام والقبول على قاعدة: "لا إكراه في الدين" وعلى قاعدة "أقربهم مودة"؛ وبذلك نجد في أيامنا هذه المسيحيين كما المسلمين يواجهون العدوان الإسرائيلي وسواه، ومما يذكر في هذا الباب الضابط الفدائي المسيحي السوري الذي قدم حياته مغرقاً البارجة جان دارك عام 1956 إبان العدوان الثلاثي على مصر برئاسة جمال عبد الناصر من قبل فرنسا وبريطانيا والعدو الإسرائيلي. وفي حرب 1973/10/6 العربية الإسرائيلية كان قائد جيش العبور على الجبهة المصرية الضابط المسيحي القبطي اللواء فؤاد عزيز غالي، وعلى الجبهة السورية كان رئيس أركان الجيش اللواء المسيحي يوسف شكور .

وإذا يممنا شطر المقاومة والانتفاضة ضد الاحتلال الصهيوني فإن العدوان لم يوفر بيت لحم وبيت جالا ولا المسيحيين ومن ذلك نفي المطران إيلاون كبوجي، والتضييق على البطريرك ميشال صباح وغير ذلك كثير .

إن المودة المطلوبة اليوم هي تلك التي تقوم على أسس القيم المشتركة بين الإسلام والمسيحية من أجل رفع الظلم ونشر العدل، ومن أجل وقف العدوان على مصائر الشعوب تحت ستار شعارات العولمة أو الأحلاف والتكتلات، وفي رأس القائمة وقف العدوان والاحتلال الإسرائيلي، وإعادة الحق لأهله .

وقد وجه إلى ذلك الإرشاد الرسولي الذي وجهه البابا يوحنا بولس الثاني إبان زيارته إلى لبنان في العام 1997. ومما جاء فيه :

"لا بد خاصة من تكثيف التعاون بين المسيحيين والمسلمين في كل المجالات الممكنة، بروح التجرد، أي من أجل الصالح العام وليس من أجل مصلحة أشخاص معينين، أو من أجل مصلحة طائفة خاصة ."

وهنا لا بد من الرد على الأمريكي الذي يعمل لنشر فكرة عدم قبول الإسلام للآخر المسيحي بما قاله رئيس المؤتمر الشعبي اللبناني كمال شاتيلا، وهو ما يلي: "من قال إن الولايات المتحدة هي مسيحية، وهي التي مارست دور المتفرج أثناء الحرب التي دارت بين مليوني مسيحي في رواندا وبوروندي بين قبائل الهوتو والتوتسي، وهي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التي تتسلط وتسط على أمريكا اللاتينية منذ الخمسينات ديكتاتوريين عسكريين. من يتهمنا بالعنصرية لم يستطع تحمل فكرة وصول رئيس كاثوليكي إلى الرئاسة في أمريكا (كينيدي) فقتلوه ذلك أنهم أرادوا رئيساً بروتستانياً ."

إن رفض قبول الآخر فعل أمريكي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية على أكثر من مستوى. فلقد بدأوا ذلك في العقد الأخير من القرن العشرين يوم خرج على العالم أحد مفكريهم فرانسيس فوكوياما بمقولة: نهاية التاريخ . وبعده صامويل هنتنجتون بمقولة: صدام الحضارات. وبعد أحداث 2001/9/11 خرج القس فرانكلين جراهام المقرب من جورج بوش الابن والذي حلف هذا الأخير أمامه يمينه يوم تولي الرئاسة، خرج هذا القس يوم 2001/10/18 ومن على شاشة C.N.N الأمريكية بهجوم حاقد على الإسلام، ومما قاله جراهام: "لا أعتقد أن هذا دين عظيم، ولا أعتقد أنه دين سلام... إن الإسلام كله دين شرير ."

إذا أضفنا موقف جراهام إلى تراث الولايات المتحدة في القتل والاسترقاق واستخدام القوة ضد كل الشعوب، والدعم المفتوح للعدو الإسرائيلي نعرف عندها من هو الذي ينظر بدونية للآخر، ومن هو العنصري الذي يمارس الإستعلاء .

4-الإسلام والنظرة إلى الآخر اليهودي/الصهيوني :

كان التعامل مع يهود منذ مجتمع المدينة الأول زمن رسول الله والصحيفة على أنهم كتابيون، ولكنهم خانوا المواثيق، وعملوا على التحريض ضد المسلمين، وحاولوا اغتيال رسول الله لذلك تم إخراجهم من مجتمع الجزيرة، وبقي التعامل معهم على أنهم كتابيون فيما خلا الجزيرة، وعاشوا بأمان باعتراف قادتهم المعاصرين أو القدامى. ليس هذا فحسب بل إنهم احتلوا المناصب، ووصلوا إلى الوزارة ورئاسة الدواوين في الأندلس، وكان مصيرهم كمصير المسلمين على يد الصليبيين الفرنجة في الجلاء من الأندلس) إسبانيا اليوم .(

والدليل على إعطائهم عهود الأمان وجودهم في بلاد عربية عديدة هي: المغرب ومصر واليمن ولبنان وسوريا والعراق وفلسطين. ولكنهم تنكروا لهذه الحالة من الأمان الذي أعطي لهم عندما قاموا بتأسيس حركة عنصرية لم يعرف لها تاريخ الأمم مثيلاً هي الحركة الصهيونية، وإذا بيهود العصر من كل القوميات والأعراق، وأغلبهم خزريون تهودوا في القرن الثامن الميلادي يتحولون إلى هذه المنظمة العنصرية ومن خلالها اغتصبوا ولا يزالون أرضنا ومقدساتنا وهجروا شعبنا وشردوه، ومارسوا القتل والإرهاب والتدمير .

هذا يؤكد الحقيقة الإلهية الخالدة في الآية الكريمة" :لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ."

ويهود هؤلاء الذين انقلبوا على كل المواثيق، ومارسوا العنصرية والعدوان كان فعلهم هذا نابعاً من عقيدتهم الزائفة بأنهم الشعب المختار، ومن خلال مفاهيمهم المعادية لكل من هو غير يهودي، هذه المفاهيم التي فعلت بها نصوص العهد القديم كما صاغوها، وبعدها نصوص التلمود .

إن اليهودية-الصهيونية تمثل أخطر نموذج عنصري يقوم فكره على رفض الآخر أو بالأحرى العمل على إبادته، وسلب كل ما يخصه. ومما قالوه في العهد القديم" :وإن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقونه منهم كإبرة في عيونكم، وكحربة في جنوبكم يضايقونكم في الأرض التي أنتم مقيمون بها ."

وفي التلمود يقولون" :أقتل الصالح من غير الإسرائيليين... وإذا وجد أحد يهود أممياً (غير يهودي) وقع في حفرة فعليه ألا يخرجه منها، حتى لو وجد اليهودي سلماً يمكن للأممي أن يخرج بواسطته، فالواجب عليه في هذه الحالة نزع السلم ."

ونترك لكاتب يهودي هو إسرائيل شاحاك الحديث في هذا الصدد حيث يقول: "ينبغي الإقرار من البداية أن التلمود والأدب التلمودي –بصرف النظر من الطيف العام المعادي للأغيار الذي يسري فيهما- يحتوي على مقاطع معادية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
FOR QUR'ANIC THOUGHT

جداً ووصايا موجهة أساساً ضد المسيحية. على سبيل المثال، إضافة إلى الاتهامات الجنسية البذيئة ضد يسوع، ينص التلمود أن عقوبة يسوع في الجحيم هو إغراقه في غائط يغلي ."

وإذا تتبعنا ما فعلوه في فلسطين المحتلة، ومعه أشكال العدوان والإحتلال التي مارسوها ضد البلدان العربية وصولاً الى مشاهد القتل والتدمير التي نشهدها هذه الأيام نعرف دفائن النفس اليهودية-الصهيونية التي عبر عنها الحاخام عوفاديا يوسف الزعيم الروحي لحزب شاس الذي قال بمناسبة الفصح اليهودي في شهر نيسان/أبريل من العام 2001 متحدثاً عن العرب وبعد أن وصفهم بالأفاعي:"يجب أن لا نرأف، ولا بد من قصفهم بالصواريخ وإبادة هؤلاء الأشرار والملاعين ."

هؤلاء لا يمكن ان ينظر إليهم المسلم ولا سواه مسيحياً كان أم إنساناً إلا نظرة تقوم على رفض مفاهيمهم وفكرهم هذا مع السعي لمواجهة الخطر والأطماع التي يحملونها وبهم يصدق قول الله تعالى:" إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولّوهم ."

إن الصهاينة قاتلوا المسلم كما المسيحي في الدين وفي رأس قائمة هذا القتال أعمالهم من أجل تهويد القدس، وكذلك أخرجونا من ديارنا، والأمريكي الداعم لهم يظاهر أي يساعد على إخراجنا لذلك ينهانا الله تعالى عن إقامة العلاقات معهم أو قبولهم، وبالتالي فإنهم لا يدخلون في إطار الآخر الذي دعا الإسلام لقبوله، وإنما نهانا الله تعالى عن قبول من يمارس ضدنا هذه الأنواع من العدوان. وهذا يترتب عليه انه لا سلام مع القاتل ولا مع المغتصب للحقوق والمقدسات والأرض، والصلح والسلام يكون في حال أوقف هذا العدو محاربته لنا في الدين، وفي حال خرج من أرضنا ومقدساتنا وعندما يعود أهل الأرض الى أرضهم في مثل هذا يكون السلام والصلح ممكناً، والأمريكي تستقر العلاقات معه حين يوقف انحيازه ودعمه المفتوح للعدو، ويوقف مظاهرته على إخراجنا من ديارنا، هذه هي النظرة للآخر اليهودي/الصهيوني .

5-الإسلام والنظرة إلى الآخر غير الكتابي :

تقدم القول أن الإسلام يقبل الآخر الإنسان بفعل التكريم الذي أقره الله تعالى لبني آدم طالما أن هذا الآخر لم يقاتل المسلمين في دينهم أو يخرجهم من ديارهم .

والسابقة التاريخية هي حادثة إبلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المجوس (الزرادشتيين)، حين قال للسائلين:" سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب". وعندما افتتحت بلاد فارس وتمت مصالحة المجوس أهل بيوت النار، والصابئة الذين تحتل الكواكب مكانة في عقيدتهم على ما هم عليه، وصنفوا أنهم أهل شبهة كتاب لهم عهود الأمان كأهل الكتاب مع فروق بسيطة هي أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

وإذا يممنا شطر مناطق النمور الآسيوية كالصين والهند واليابان وسواها حيث يتوزع ما يقارب 40٪ من سكان العالم، وهؤلاء في الغالب يدينون بغير الإسلام والمسيحية، فهم بوذيون وهندوس وكونفوشيوس وشنتويون، وهؤلاء من عالم يعاني وعانى من الغزو الإستعماري، وله معنا قواسم مشتركة في مقاومة العنصرية، ومشاريع الهيمنة الأمريكية باسم العولمة، وهم يعيشون اليوم تحديات على مصالحهم، وبينهم وبين العالم العربي والإسلامي مصالح مشتركة وخاصة الصين لذلك لا بد من التعامل معهم على أساس قبول الآخر الإنسان والإنفتاح عليهم على قواعد الإنسانية والمصالح المشتركة مع البحث عن قيم مشتركة قد تتبعها حالات تفاعل ثقافية ودينية على قاعدة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

خاتمة :

الأصل في الإسلام هو قبول الآخر الذي لم يقاتل المسلمين في الدين ولم يخرجهم من ديارهم والحرب في الإسلام تكون دوماً دفاعية ضد المعتدي كحالة العدوان الإسرائيلي ومن يسانده او ما يشابهه إنطلاقاً من قول الله تعالى:" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ."

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكما أن الإسلام يقبل الآخر ويرفض الفئوية كذلك يوجد في الغرب عموماً وحتى في الولايات المتحدة مواطنون وتيارات وأهل فكر يرفضون العنصرية وأساليب التسلط والهيمنة باسم العولمة أو بأي اسم آخر، ولا يمكن للبشرية أن تركب سفينة النجاة باتجاه بر الأمان والعلاقات المستمرة إلا إذا قامت لغة الحوار مع سيادة العدل ونشره ووأد الظلم ومشاريعه، ووقف الإحتلال والعدوان على حقوق الآخرين أياً كانوا. هذا ما تحتاجه البشرية كي تتخلص من نار الصراعات والحروب ولا حاجة لما يمارسه الأمريكي من توزيع آلة الحرب والدمار، أو أساليب الإستيلاء والإختراق أو محاولات التخريب الثقافي والأخلاقي .

أما عندنا فلا حل للصراع الا بردع الإحتلال الصهيوني ورد الحقوق لأصحابها بتحرير الأرض والمقدسات وواجب من هم أحرار فعلاً أن يقفوا مع حقنا هذا لردع العنصرية الصهيونية عدوة الدين والإنسان.

خلاصة :

يمكن القول بأن المنظور الإسلامي، خصوصا بمصدره الأساسي)القرآن(، يقر التعددية بكل صورها وألوانها ويبين للمسلمين وغير المسلمين أن الحياة تتسع للموافق والمخالف. ونستطيع أن نخلص بأن الاختلاف حقيقة كونية وفريضة شرعية أقرها الإسلام. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة أيقنا أن الذين يتحدثون عن زوال هذا الاختلاف أو نفي وجوده أصلا وعن اجتماع الناس على رأي واحد غير منصوص عليه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وهو الذي يمثل ثوابت الإسلام وأركانه، كلامهم يحتاج إلى نظر حيث يصعب إثباته أو تطبيقه، وهو ما لم يحدث حتى في عهد أصحاب النبي الذين اختلفوا والرسول بينهم يتنزل عليه الوحي. فالإنسان لا يمل من هذا الاختلاف سواء كان في أمور شرعية أو أمور حياتية صرفة، ما دام ذلك بعيدا عن التنازع المفضي إلى التفرقة والشقاق والبغضاء والبغي. بل من المهم أن يكون هذا الاختلاف منهج حياة يطبقه الزوج والزوجة في بيتهما مع أولادهما وتطبقه المؤسسات على اختلافها وتنوعها بداية من الأسرة، النواة الأولى لبناء المجتمع، وصولا إلى مؤسسة الدولة أو مجموعة الدول أو العالم بأسره، وذلك لتوطيد قيم الحوار والتسامح اللذان يعدان من أرقى الروابط السامية للاجتماع البشري.

This file was downloaded from QuranicThought.com